

من أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي :

عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج)

التابعي الجليل

لأن كانت الإسكندرية تعزّ بالصحابي الجليل أبي الدرداء ، وبالضريح الموجود بها والمنسوب إليه^(١) ، فإنها تعزّ أيضاً بتابعي من التابعين الأجلاء تجمع المصادر على أنه زارها وأقام بها وقتاً ما وتوفي بها^(٢) .

هذا التابعي الجليل هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج .

وقد زار الاسكندرية عدد من الصحابة الأجلاء ، وعدد آخر من التابعين الكرام ، ولكنها — لأمر ما — لم تحتفظ إلا بذكرى واحد من هؤلاء وهو أبو الدرداء ، وذكرى واحد من أولئك هو عبد الرحمن ابن هرمز .

والمتفق عليه أن الصحابي هو كل مسلم رأى النبي — عليه السلام — ولو ساعة ، وإن لم يجالسه ويخالطه ، وإن كان معظم أهل الأصول يشترطون في الصحابي مجالسة الرسول .

والمتفق عليه كذلك أن التابعي هو الذي رأى صحابياً ، وإن كان البعض يشترطون في التابعي أن يكون جالس صحابياً .

(١) أثبتنا في بحث آخر أن أبا الدرداء لم يمّت ولم يدفن بالاسكندرية ، وإنما مات ودفن في دمشق ، انظر : (جمال الدين الشيال : أبو الدرداء الصحابي الجليل ، مقال بالمجلة ، العدد ٥ ، مايو ١٩٥٧ ، ص ٩٥ — ١٠١) .

(٢) تعزّ الاسكندرية بضريح ينسب إلى عبد الرحمن بن هرمز ، ولكن الشكوك تعموم حول نسبة هذا الضريح إليه ، انظر الفقرات الأخيرة من هذا المقال .

وقد وفد على الاسكندرية وعاش فيها عدداً من التابعين الكرام رواة الحديث ، منهم :

— ثمامة بن شفي الهمداني أبو علي المصري ، نزيل الاسكندرية ، روى عن عقبة بن عامر وفضالة بن عبيد ، وثقفه النسائي ، ومات قبل العشرين ومائة .
— ضميم بن مالك الكلاعي الحميري — قاضي الاسكندرية — روى عن ابن عمر .

— ربيعة بن سيف المصافري الاسكندراني ، روى عن فضالة بن عبيد ، وروى عنه الليث بن سعد ، ووصفه الدارقطني بأنه مصري صالح ، وتوفي في حدود عشرين ومائة .

— وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام التيمي ، أبو عقيل ، نزيل مصر ، روى عن جده ، وله صحبة عن ابن عمر وابن الزبير ، ومات بالاسكندرية سنة ١٣٥ هـ عن سن عالية .

ومنهم صاحبنا الذي نتحدث عنه في هذا المقال : عبد الرحمن بن هرمز ، أبو داود المدني .

وحياة ابن هرمز غامضة غموضاً عجيباً ، ولم تصلنا عنه إلا شذرات قليلة ، سنحاول — بعد جمعها ودراستها — أن نستوضحها وأن نستشف منها صورة لهذا العالم الجليل ، وطرفاً من سيرته .

* * *

هو عبد الرحمن بن هرمز بن أبي سعد ، وكنيته أبو داود ، المشهور بالأعرج ، القرشي ، المدني .

كان يرتبط بأسرة بني هاشم — أسرة الرسول عليه السلام — برابطة الولاء ، فهو مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وفي رأى آخر أنه مولى محمد بن ربيعة .

لا نعرف شيئاً عن سنة ولادته ، ولكننا نعرف من الطبقة الثانية أنه من التابعين ، وأنه ولد في المدينة النبوية ، وعاش فيها في وقت كانت المدينة فيه مجتمع الخُلُص من علماء المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ؛ وكان العلم الذي يشغل الناس في ذلك الوقت هو القرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، والفقه ومشاكله ، والعربية وأصولها .

وقد تلمذ عبد الرحمن بن هرمز على جم غفير من الصحابة الذين أدركهم فهو قد سمع الحديث ورواه عن : أبي هريرة ، وأبي سيد الخدري ، وعبد الله ابن مالك بن بُجَيْسَنَة ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، وابن عباس ، وعمر مولى ابن عباس ، ومحمد بن مسلمة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر ، وأسيد بن رافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك ، وكثيرين غيرهم .

ويبدو من هذا الثبوت الحافل أن ابن هرمز كان تلميذاً مجداً ، وأنه كان يتحرى الصواب في دراسته للحديث ، ولهذا لم يقنع بالأخذ عن صحابي واحد ، ولم يلزم أستاذاً واحداً ، ومع هذا فإن المراجع تذكر أنه كان أكثر ملازمة لأبي هريرة ورواية عنه ، فقد قال السيوطي في ترجمته له : « هو صاحب أبي هريرة ، أحد الحفاظ والقراء ، أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس ، وأكثر من السنن عن أبي هريرة ^(١) » .

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام :

« وكان ثقة ثبता ، عالماً بأبي هريرة ^(٢) » .

وروى ابن سعد في طبقاته قال : حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة ، عن عثمان بن عبيد الله بن أبي رافع ، قال : رأيت من يقرأ على الأعرج

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

حديثه عن أبي هريرة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول :
هذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم ، قال : فأقول حدثني عبد الرحمن
وقد قرأت عليك ؟ قال : نعم ، قل : حدثني عبد الرحمن بن هرمز^(١) .
وقال ابن قاضي شعبة في طبقاته :

« عبد الرحمن بن هرمز بن أبي سعد الأعرج أبو داود المدني ، مولى
محمد بن ربيعة ، المقرئ المحدث ، صاحب أبي هريرة^(٢) » .

فإذا عرفنا أن أبا هريرة — رضى الله عنه — كان من أكثر الصحابة
ملازمة للرسول ورواية لأحاديثه (حتى يقال إن الأحاديث التي تضاف
إليه تقدر بخمسة وثلاثة آلاف حديث) أدركنا أيَّ علم حصل عبد الرحمن
ابن هرمز بتلميذه على أبي هريرة وملازمته له ، حتى لقد وصفه ابن سعد
بأنه كان ثقة كثير الحديث^(٣) ، وقال البخاري : « أصبح أسانيد أبي هريرة
أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة » ، ووصفه السيوطي بأنه كان وافر
العلم ، مع الثقة والأمانة^(٤) .

* * *

ولم يكن الحديث هو العلم الوحيد الذي تفرغ ابن هرمز لدراسته وروايته ،
ولكنه كان من العلماء الثقات بأنساب العرب ، قال الذهبي في طبقات القراء :
« وله خبرة بأنساب قريش » ، وقال السيرافي : كان أعلم الناس بأنساب
قريش » .

وتوافر ابن هرمز أيضاً على دراسة القرآن وقراءته . وكان من الثقات
المتثبتين ، يلجأ إليه الناس للقراءة عليه ، ويعهدون إليه بكتابة المصاحف

(١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٠٩ .

(٢) ابن قاضي شعبة : الطبقات ، مخطوطة دار الكتب القاهرة .

(٣) ابن سعد : المرجع السابق ؛ وانظر أيضاً : النووي : تهذيب الأسماء والنسب ،

القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٣٠٥-٣٠٦ .

(٤) السيوطي : المرجع السابق .

لاطمئنانهم إلى حفظه وقراءته وعلمه ومعرفته ، ولهذا تكاد تجمع المراجع على وصفه بالمقرئ المحدث ، وقال ابن سعد :

« كان الأعرج يكتب المصاحف ، » .

وقال الذهبي في طبقات القراء :

« كان الأعرج أحد من برز في القرآن والسنة ، »^(١) .

ووصفه في تذكرة الحفاظ بأنه « كاتب المصاحف ، » ، وبأنه « كان ثقة ثبتا عالما مقرئا ، » ، وقال في ترجمته له في تاريخ الإسلام :
« وكان يكتب المصاحف ويقريء القرآن ، »^(٢) .

وكان عبد الرحمن بن هرمز — مع عنايته بعلوم الحديث والقرآن — عالما مبتكرا ، فإن المراجع والروايات تكاد تجمع على أنه أول من وضع علم العربية والنحو ، فبعضها ينسب هذا إلى أبي الأسود الدؤلي ، وبعضها ينسبه إلى ابن هرمز ، والبعض الثالث ينسبه إليهما معا ، فقد روى ابن طيعة عن أبي النضر قال :

« كان الأعرج أول من وضع العربية ، » .

وقال القفطي في إنباه الرواة :

« قال اهل العلم : إنه (أى الأعرج) أول من وضع علم العربية ، والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة ، وكان من أعلم الناس بالنحو ، »^(٣) .

وقال ابن قاضي شهبه :

« وهو أول من وضع النحو في قول ، » .

(١) رواه عنه ابن قاضي شهبه في المرجع السابق .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

وقد فصل الزيدى فى كتابه « طبقات النحويين ، الأسباب التى دعت إلى إبتكار علم النحو فى أواخر القرن الأول الهجرى ، وأرجعها إلى انتشار الإسلام بين الشعوب غير العربية ، وما تبعه من تبابل الألسنة وخروج هؤلاء المسلمين الجدد عن قواعد النطق الصحيحة عند العرب ، وأشار الزيدى فى حديثه هذا إلى العلماء الذين ينسب إليهم الفضل فى وضع علم النحو ومن بينهم : أبو الأسود الدؤلى ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، قال : « ولم تزل العرب تنطق على سبيلها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ، ففسد الفساد فى اللغة العربية ، واستبان منها فى الإعراب الذى فى هو حطايها والموضح لمعانيها فتفطن لذلك مَنْ نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، فعظم الإشفاق من 'فشو' ذلك وغلبته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب فى تقييدها لمن ضاعت عليه ، وتثقيفها لمن زاعت عنه .

فكان أول من أصل ذلك وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبوابا ، وأصلوا له أصولا ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف ؛ وكان لأبى الأسود فى ذلك فضل سبق وشرف التقدم ، ثم وصل ما أصلوه من ذلك التالون لهم والآخذون عنهم ، فكان لكل واحد منهم الفضل بحسب ما بسط من القول ، ومد من القياس ، وفتق من المعانى . وأوضح من الدلائل ، وبين من العلل » (١) .

وكان عبد الرحمن إلى هذا كله الأستاذ الأول للإمام مالك — إمام

(١) الزيدى : طبقات النحويين والفويين ، نشر أبو الفضل إبراهيم ، ص ٢٠٠ .

دار الهجرة - عنه أخذ العلم أول ما أخذ ، وظل يصاحبه ويلزمه وحده سنين طويلة ، على هذا تجمع المراجع ، وإن اختلفت في تحديد العلم أو العلوم التي أخذها التلميذ عن الأستاذ ، فقد جاء في كتاب « إنباه الرواة » للقفطي :

« يروى أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة - رضى الله عنه - اختلف إلى عبد الرحمن بن هرمز عدة سنين في علم لم يثبه في الناس ، فمنهم من قال : تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل : كان ذلك في علم أصول الدين وما يُردُّ به مقالة أهل الزيغ والضلالة ... والله أعلم ،^(١) .

ولد الإمام مالك - رضى الله عنه - في المدينة في أواخر القرن الأول للهجرة - في سنة ٥٩٣ هـ على أرجح الأقوال - ، وفي المدينة نشأ ، وفيها عاش عمره كله لم يغادرها البتة إلا إلى مكة للحج .

وكانت المدينة في ذلك الوقت حافلة بعدد كبير من التابعين ، وكانت موطن العلم وموئل العلماء ، وفي مقدمتهم عالمنا عبد الرحمن بن هرمز ، والاتصال بمالك به وتلميذه عليه قصة طريفة ، روى ابن مالك نفسه هذه القصة قال : « كان لي أخ في سن ابن شهاب ، فالتقى أبي يوماً علينا مسألة ، فأصاب أخى وأخطأت ، فقال لي أبي : ألهتك الحمام عن طلب العلم ؛ فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين (وفي رواية ثمانى سنين) لم أخطئه بغيره وكنت أجعل في كفى ثمرأ وأنا وله صبيانه ، وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول ، ،

ومن هذا الحديث نستطيع أن نعرف أن مالكا بدأ يتلمذ على ابن هرمز في حياته أى في نحو العاشرة من عمره بعد أن بلغ مبلغ من يسأل فيخطيء أو يصيب ، ويؤاخذ على خطئه وصوابه ، ولا يمكن بداهة أن يبلغ الصبي هذا المبلغ ويؤاخذ هذه المتواخذه قبل العاشرة ؛ ونستطيع أن نعرف كذلك أن عتاب أيه كان ذا أثر قوى في نفسه ، فدفعه إلى ترك اللهو واللعب والتفرغ إلى طلب

(١) القفطي : إنباه الرواة ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

العلم وملازمة أستاذ بعينه - هو ابن هرمز - سنين طويلة ، أقلها سبع سنين ؛
ونستطيع أن نعرف أن التلميذ الصغير مالكا ، كان حريصا الحرص كله
على الإفادة من علم أستاذه كله حتى ليتحایل فيهدى صبيان ابن هرمز بعض
التمر لمنعوا أى وافد من الدخول إليه أثناء الدرس ؛ ونستطيع أن نعرف
أخيراً أن ابن هرمز كان قد وصل في ذلك الوقت سن الشيخوخة ، بدليل
قول مالك : « وكنت أقول لهيبانه : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا
مشغول » .

وقد أعجب ابن هرمز الأستاذ ، بمالك التلميذ ؛ فكان أشد حرصا
على الاجتماع به وملازمته والتدريس له ومذاكرته في العلوم المختلفة ، فقد جاء
في المدارك :

« قال ابن هرمز يوماً لجاريته مَنْ بالباب ؟ فلم ترَ إلا مالكا فرجعت
فقلت ما شئ إلا ذاك الأشقر ، فقال : ادعيه فذلك عالم الناس ؛ وكان مالك
قد اتخذ بُسَّانا - أى سروا - محشوا للجلوس على باب ابن هرمز ، يتقى
به برد صخر المسجد ، وفيه كان مجلس ابن هرمز » .

فابن هرمز يصف تلميذه مالكا بأنه عالم الناس ؛ والدرس يطول ساعات
وساعات لا يسأم من طوله الأستاذ ولا يضجر التلميذ ، بل إن التلميذ يتخذ
لهذه الجلسات الطويلة عدتها . فليس سروا لا مبطنا يقيه برد الحجر على باب
ابن هرمز إن طال به الانتظار ، ويقيه برد الصخر بالمسجد إن طالت به
ساعات الدرس ، فإنه يروى أن مالكا كان يلزم ابن هرمز من بكرة النهار
إلى الليل . جاء في المدارك نقلا عن مالك نفسه :

« كنت آتى ابن هرمز بكرة ، فما أخرج من بيته حتى الليل » .

ومن هذا يتضح أن مالكا كان يتلقى دروسه على ابن هرمز في البيت
تارة ، وفي المسجد تارة أخرى .

وقد عرفنا من قبل أن ابن هرمز كان من الثقات ، أجمعت المراجع على توثيقه ووصفه بالأمانة ، وأنه كان يتحرى الصواب في روايته للحديث ، ولهذا كان اثره في تليذه مالك واضحاً ، فنشأ مالك دقيقاً مثبِتاً ، يترسم خطي أستاذه ، ويلتزم أسلوبه في البحث والتحري ، ولهذا يروى أن مالكا كان يكثر من قوله : « لا أدري » ، وأنه كان يقتدى في هذا بأستاذه ابن هرمز . جاء في المدارك :

« قال مالك : سمعت ابن هرمز يقول : ينبغي أن يورث العالم جلساءه قول لا أدري حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال لا أدري ... قال ابن وهب : كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه : لا أدري . »

وهكذا تكون شيمة العالم الحق ، لا يأنف أن يقول لا أدري إذا كان لا يدري ، ويأنف أن يفتي بما لا يعلم ، بل لقد بلغ من دقة ابن هرمز وشدة حرصه أنه كان لا يحب أن يروى عنه ، ولهذا نهى مالكا أن يذكر اسمه في سنده ، وآثر بهذا أن يخمل ذكره عن أن يشيع عنه النقل وقد يكون منه الخطأ ، فيجرح ويتهم بالكذب .

وكان مالك ذا عقل وبصيرة ، ينقد ما يستمع إليه نقد العارف الخبير ، ولهذا كان ابن هرمز يؤثره هو وصاحبه عبد العزيز بن أبي سلمة على غيرهما من تلاميذه ، لأنهما ينهانه إلى الخطأ إن أخطأ ، حتى لقد قيل له : « نسألك فلا تجيبنا ، ويسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما » ، فيقول : « دخل عليّ في بدني ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل عليّ في عقلي مثل ذلك ، وأنتم إذا سألتوني عن الشيء فأجبتكم قبلتموه ، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فإن كان صواباً قبلاه ، وإن كان غيره تركاه ، »

أما ما هو العلم الذي أخذه مالك عن ابن هرمز فهذا ما لا نعرفه على وجه التحقيق ، فقد رويناه من قبل عن القفطي وغيره أن مالكا اختلف إلى عبد الرحمن ابن هرمز عدة سنين في علم لم يثبه في الناس ، « فمنهم من قال :

تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل كان ذلك من علم أصول الدين وما يرد به مقالة أهل الزيغ والضلالة ، ؛ ولستنا نميل إلى الرأي الأول لأن علم النحو واللغة ليس به من الأسرار ما يخشى معه أن يبتث بين الناس ، والرأي الثاني أقرب إلى الصواب ، ويؤكد أن مالكا قال عن أستاذه ابن هرمز أنه « كان من أعلم الناس بالرد على أهل الأهواء وما يختلف فيه الناس » .

فهذه العبارة تدل على أنه كان يتلقى عليه اختلاف الناس في الفتياء والفقه ، ويتلقى عنه الرد على أهل الأهواء ، وهذه كلها أمور دقيقة شائكة لا يستساغ نشرها على كل الناس ، يقول الأستاذ محمد أبو زهرة في كتابه القيم عن الإمام مالك :

« وكأنه بذلك يقسم العلم قسمين : علم يلقي على الملأ والجمهور ولا يختص به أحد إذ لا ضرر فيه لأحد ، وكل العقول تقوى على قبوله واستساغته وهضمه والانتفاع به ؛ وقسم لا يصح أن يعرفه إلا خاصة الناس فلا يلقي ، لأن ضرره على بعض النفوس أكثر من نفعه ، كالرد على أهل الأهواء ، فإنه ربما يعسر فهمه على بعض العقول ، وربما يفهمونه على غير وجهه ... فيكون الضرر حيث كان يرجى النفع ، ولذلك لم يذع كل ما عليه عن ابن هرمز ، وإن كان تلقاه »

هذا موجز عن حياة ابن هرمز العلمية ، عرفنا منه أى العلوم كان يتقن ، وعرفنا منه مكاتبه العلمية الممتازة بين السادة الأفاضل من علماء المدينة وكبار التابعين ، وعرفنا منه صلته بتلميذه النابغة الإمام مالك — رضى الله عنه — ، ولم يكن مالك — بطبيعة الحال — تلميذه الوحيد ، بل أخذت عن عبد الرحمن أمّة من العلماء والمحدثين ، أشارت المراجع إلى نفر منهم ، وبجمل ما فيها أنه روى عنه : الزهرى ، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، وصالح بن كيسان ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وزيد بن أسلم ، وموسى

ابن عقبة ، وجعفر ابن ربيعة ، وعلقمة بن أبي علقمة ، ومحمد بن عجلان ،
وعبد الله ابن لهيعة ، وغيرهم .

وقد عاش عبد الرحمن بن هرمز عمره كله في المدينة ، لم يغادرها — قبل
رحلته الأخيرة إلى الإسكندرية — إلا مرة واحدة زار فيها الشام ، وقد
انفرد ابن عساكر في « تاريخ دمشق » بذكر رحلته هذه الشامية ، قال
في ترجمته لابن هرمز : « ووفد على يزيد بن عبد الملك » ، ونستطيع أن
نحدد وقت هذه الرحلة بأنها كانت بين سنتي ١٠١ و ١٠٥ هـ ، ففي السنة
الأولى ولي يزيد الخلافة ، وفي السنة الثانية توفي .

وقال البلاذري في « فتوح البلدان » :

« وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي أن ابن هرمز الأعرج القاريء كان
يقول : خير سواحلكم رباطا الإسكندرية ، فخرج إليها من المدينة
مرابطا ، فمات بها في سنة ١١٧ هـ ^(١) »

ويبدو أن الرجل كان قد عمر وقارب المائة حين خرج مرابطا إلى
الإسكندرية فهو كما عرفنا كان أقرب تلاميذ أبي هريرة إليه . صحبه مدة ،
وأخذ عنه ، وروى عنه الحديث ؛ وأبو هريرة توفي سنة ٥٧ أو ٥٨ هـ ،
فإذا قدرنا أن سن ابن هرمز كانت عند وفاة أستاذه أبي هريرة ما بين
الثلاثين والأربعين صح استنتاجنا أنه خرج إلى الإسكندرية وقد قارب
المائة من عمره ، ويؤكد هذا الاستنتاج ما ذكرناه سالفا من تبرير ابن هرمز
لإيثاره مالك وعبد العزيز دون بقية تلاميذه ، حين قال : « دخل عليّ
في بدني ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل عليّ في عقلي مثل ذلك » ،
وقد ذكرنا من قبل أيضا أن مالكا ولد في سنة ٩٣ هـ ، وأنه بدأ يتلمذ على

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ ، وقال (القهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ،
ص ٢٧٥) في ختام ترجمته لابن هرمز : « انتقل في آخر أيامه إلى مصر ، وتوفي غربا
بالإسكندرية سنة سبع عشرة ومائة على الصحيح » .

ابن هرمز في العاشرة من عمره ، أى في سنة ١٠٣ أو نحوها ، وأنه لازمه مدة أقلها سبع سنوات ، أى إلى سنة ١١٠ ؛ ولهذا نرجح أن ابن هرمز خرج إلى الإسكندرية بعد ١١٠ هـ ، ولهذا فهو لم يقيم بالإسكندرية إلا سنوات قليلة ، نحو الخمس سنوات ، ثم توفى إلى رحمة الله في سنة ١١٧ ، وهو تاريخ اتفق عليه جميع من ترجموا له .

ولم تشر المراجع بكلمة واحدة إلى هذه السنوات القليلة التي قضاها الشيخ ابن هرمز في الإسكندرية قبل وفاته وكيف قضاها ، وأغلب الظن أن الرجل قضى هذه السنوات في التدريس ورواية الحديث ، فقد كانت الإسكندرية — خير السواحل رباطا كما وصفها ابن هرمز — تجتذب إليها عددا كبيرا من علماء المسلمين ومن أفاضل التابعين ، وكان يقيم بها وقت مقام ابن هرمز بها عدد كبير من هؤلاء التابعين ممن ذكرنا ، من أمثال بن شفي الهمداني ، وربيعة بن سيف المعافري الإسكندراني ، وزاهر ابن معبد بن عبد الله بن هشام التيمي ، وهؤلاء وغيرهم كانوا يكونون المدرسة الأولى التي أشاعت علوم القرآن والحديث والفقه واللغة ونشرتها في مدينة الإسكندرية .

وفي الإسكندرية اليوم ، في شارع رأس التين ، مسجد يسمى مسجد سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وبه ضريح ينسب إلى هذا التابعى الجليل ، ولم يشر إلى هذا المسجد وهذا القبر أحد من المؤرخين والرحالة إلا على مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» ، ولم ينسبه إلى سيدى عبد الرحمن ، وإنما نسبه إلى بانيه «الحاج درويش أبى سن» ، فقد قال عند تعداد مساجد المدينة :

« مسجد أبى سن أصل أرضه مقبرة بها ضريح الشيخ عبد الرحمن ابن هرمس ، وكان عليه مقصورة من خشب ، فلما بنى ما حوله ودخل في تنظيم المدينة بنى ذلك المسجد ، وجعل داخله ضريح الشيخ المذكور ، والذي بناه المرحوم درويش أبو سن ، وهو مسجد تام المرافق ،

حسن المنظر ، مقام الشعائر ، ويصرف عليه من الوقف ، (١)
فالمسجد حديث البناء ، بني في منتصف القرن الماضي ، وقد زرت مرارا ،
ورأيت في أعلى محرابه لوحة صخرية كتب عليها :
« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، بني هذا صاحب
الخيرات حاج درويش أبي سن ١٢٦٥ ،

وإلى يسار المحراب غرفة بها ضريح تعلوه مقصورة خشبية ، هو المنسوب
إلى سيدي عبد الرحمن بن هرمز ، وإلى جانبه ضريح رخامي بسيط دُفن به
باني المسجد الحاج درويش أبو سن ، وعلى حائط هذه الغرفة لوحة حجرية
أخرى تحمل نصا شبيها بالنص السابق المرقوم أعلى المحراب .

والباحثون في تاريخ الإسكندرية لا يطمثون إلى صحة نسبة هذا
الضريح إلى سيدي عبد الرحمن ، وقد أكد لي هذا الشك فضيلة الأستاذ
الشيخ بشير الشندي — المدير السابق لمكتبة بلدية إسكندرية — ، وروى
لي أن الشيخ محمد البنا — أحد علماء الإسكندرية في القرن الماضي — كان
يجتاز شارع رأس الزين الحالي دائما في طريقة إلى سراي رأس التين لزيارة
الحديو إسماعيل ، وقد رأى ليلة فيما يرى النائم أن صاحب هذا الضريح
يعاتبه ويقول له : « كيف تمر بقبري ولا تحييني ؟ » ، فسأله الشيخ « ومن
أنت ؟ » ، قال : « أنا عبد الرحمن بن هرمز » ، وقصَّ الشيخ البنا هذه الرؤيا
على نفر من أصدقائه ، وكان من بينهم رجل فاضل من أرباء المدينة هو
الشيخ درويش أبو سن ، فتطوع لبناء هذا المسجد ليضم الضريح ، ومن
ثمَّ نسب المسجد والضريح إلى سيدي عبد الرحمن ابن هرمز ، ثم أوصى
أن يدفن هو إلى جواره بعد وفاته .

فنسبه هذا الضريح إلى سيدي عبد الرحمن نسبة حديثة ، ترجع إلى
منتصف القرن الماضي ، ولم يكن صاحب هذا الضريح معروفا قبل هذه

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية . ج ٧ ، ص ٧٠ .

الحادثة ، ويؤكد هذا الشك مرة أخرى أن دارس طبوغرافية المدينة لا يطمئن إلى وجود هذه البقعة من الأرض المقام عليها الضريح في أوائل القرن الثاني للهجرة ، وأغلب الظن أن هذه البقعة كانت وقتذاك مغمورة بمياه البحر ، شأنها شأن معظم المنطقة التي يقوم عليها حي الأنفوشي ورأس التين .

ونحن إذا انتهينا من هذا الشك إلى شيء من الاطمئنان ، ثار أمامنا شك آخر ، فإلى القرب من شارع رأس التين الحالي ، وفي نهاية شارع الميدان بل على امتداده يوجد شارع يسمى شارع زاوية الأعرج ، ، وتقوم فيه زاوية صغيرة تسمى « زاوية الأعرج » ، وليس بها ضريح ، ويجرؤ البعض فينسبوننا إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، فقد كان الرجل أعرجا ، وشهر بهذه الصفة في كتب الحديث .

ولكن هذه النسبة خاطئة أيضا ، والذي نرجحه أن هذه الزاوية تنسب إلى ولى آخر من أولياء الله الصالحين عاش في الإسكندرية في القرن الثامن للهجرة ، وكان اسمه « الشيخ برهان الدين الأعرج » ؛ ولهذا الشيخ قصة طريفة ، فهو المشجع الأول للرحالة المشهور ابن بطوطة على إتمام رحلاته في الشرق الأقصى حتى يصل الهند والصين ؛ ذكر ابن بطوطة أنه زار هذا الشيخ أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية ، وأنه أقام في ضيافته ثلاثة أيام ، قال :

« ومنهم (أى من شيوخ الإسكندرية) الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج ، من كبار الزهاد وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامى بالإسكندرية ، وأقمت في ضيافته ثلاثا .

دخلت عليه يوما فقال لى : « أراك تحب السياحة والجولان في البلاد » ، فقلت له : « نعم ، إني أحب ذلك » ، ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : « لا بد لك إن شاء الله من

زيارة أخى فريد الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكريا بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام ، ، فعجبت من قوله ، وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم ، وأبلغتهم سلامه ، ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عندى محوطة ، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها ، إلى أن سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر ، (١) . .

ودارسو ابن بطوطة ورحلته يرون دائماً أن هذه الكلمات الموحية من الشيخ برهان الدين الأعرج الإسكندري هي التي أوحى إلى ابن بطوطة فكرة الارتحال إلى أن يصل إلى هذه الأطراف القاصية من بلاد المسلمين . وبعد ، فلعلنا أزلنا بهذا التحقيق كثيراً من الشكوك التي تحيط بضرخ سيدى عبد الرحمن بن هرمز ومسجده ، وبسيميّه برهان الدين الأعرج وزاويته ، ولعلنا قمنا ببعض الواجب علينا من التعريف بسيرة هذا التابعى الجليل الذى تعزى الإسكندرية به ، وحق لها أن تعز به وأن تفخر ، فقد أصبح تاريخه جزءاً من تاريخها .

جمال الدين السبّال

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٦-١٧ .

مراجع البحث

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي)

= الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءا ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٣٠١ هـ

= اللباب في تهذيب الأنساب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧ - ١٣٦٩

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)

= مهذب الرحلة ، نشر أحمد العوامري وأحمد جاد المولى ، القاهرة

١٩٣٣

البلاذري (أحمد بن يحيى)

= فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨

ابن تقي بردي (جمال الدين يوسف ، أبو المحاسن)

= النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الأول ، القاهرة

١٩٢٩

ابن حجر . (شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني)

= تهذيب التهذيب ، حيدر آباد الدكن ١٣٢٦ هـ ، الجزء السابع

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)

= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ١٣٦٧ -

١٣٦٩

= تذكرة الحفاظ ، أجزاء ، حيدر آباد الدكن (بدون تاريخ)

الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)

= طبقات النحويين واللغويين ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٤

- أبو زهرة (الشيخ محمد)
 = الإمام مالك ، القاهرة
 ابن سعد (كاتب الواقدي)
 = الطبقات الكبير ، نشر سخاو وآخرين ، ١٩٠٥ - ١٩٢١
 السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)
 = حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزان ، القاهرة ١٣٢٧
 = بغية الوعاة ، القاهرة ١٣٢٦
 ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن)
 = تاريخ مدينة دمشق ، والمجلد الأول ، نشر صلاح الدين المنجد ،
 دمشق ١٩٥١
 ابن العباد (أبو الفلاح عبد الحمي)
 = شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥٣
 ابن قاضي شہبة (تقي الدين أحمد بن محمد)
 = طبقات الشافعية ، مخطوط بدار الكتب المصرية
 القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف)
 = إنباء الرواة على أنباء النحاة ، ظهر منه ٣ أجزاء ، ونشر محمد
 أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ - ١٩٥٥
 مبارك (علي)
 = الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، بولاق ١٣٠٤ - ١٣٠٦
 ابن النديم
 = الفهرست ، طبع القاهرة (بيون تاريخ)
 أبو نعيم (أحمد بن عبد الله)
 = حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٥١ هـ